المقتطف

الجزء العاشر من السنة الثانية عشرة

١ تموز (يوليو) سنة ١٨٨٨ = الموافق ٢١ شوال سنة ١٣٠٥

الوزارة الرياضيَّة

التعاون فطري في الناس يلجأون اليهِ اطفالاً وشبَّانًا وكهولاً وشيوخًا. ولولاهُ ما اجتمع شملهم ولا رسخت في الحضارة قدمهم. وامير القوم القائم بامورهم الحامل لهامهم احوجهم الى الاستعانة برأي الحكماء منهم والاعتضاد بهم في تنفيذ اوامره ولذلك لا تخلو دولة منعة من وزراء يعاونون ملكها ويشدون إزرهُ. هذا كان شأن الدوَل القديمة من الفرس والروم قبل الاسلام فلما جاء الاسلام وصار الامر خلافةً ذهبت خطط الوزارة كلها اوَّل الامر بذهاب رسم المُلك الاَّ ما هو طبيعيٌّ من المعاونة بالرأي والمفاوضة فيهِ فلم يكن زوالهُ اذ هو امر لا بدَّ منهُ فكان الرسول يشاورُ اصحابهُ ويفاوضهم في مهمَّاتهِ العامَّة والخاصَّة ويخصُّ مع ذلك ابا بكر الصديق بخصوصيَّات أُخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول واحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يُسمُّون ابا بكر وزيرهُ[1]. ثم لما استقل مُلك العرب دعا الى وضع خطط الوزارة على ما كانت عليهِ عند الفرس والروم وبلغت الدولة الاسلاميَّة اوج مجدها في ايام هرون الرشيد ووزيرهُ يومئذٍ يحيى البرمكي الفارسي ثم ابنهُ جعفر. ويحيى هذا هو الذي قلَّد الرشيد الخلافة وعزَّز لهُ اركانها بعد ان مهَّد لهُ السبيل اليها وفي ذلك يقول ابرهيم الموصلي النديم

أَلم ترَ ان الشمس كانت مريضةً فلما اتى هرون اشرق نورُها
تلبَّست الدنيا جمالاً بملكهِ فهرون والدنيا ويحيى وزيرُها

وخلفهُ في الوزارة ابنهُ جعفر وكان جامعًا لخصال الخير بارعًا في مهمَّات الامور ذكيًّا فطنًا فبلغت

(١) مقدمة ابن خلدون الفصل الثالث من الكتاب الاول

دولة الرشيد في أيامه ارج مجدها وهو الذي قرّب العلماء وادنى المترجمين فترجموا له كتب اليونان وصنع لهم الورق ليكثر استنساخها ويعمّ نشرها وتنفعها

وكان الخلفاء الاوّلون يستوزرون من رجح عندهم عقلة ونوسموا فيه سمات الخير ولو كان من عامّة خدمهم كما جرى للمعتصم مع ابن الزيّات وكان كاتبًا بمايه . وما احسن ما قاله الخليفة المأمون في وزير استوزرهُ وهو "التمستُ لامري رجلاً جامعًا لخصال الخير ذا عفة في خلائقه واستقامة في طرائقه قد هذّبته الآداب واحكمته التجارب ان اؤتمن على الاسرار قام بها . وان قُلّد مهمات الامور نهض فيها . يُسكنه الحلم ويُطلعه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة . له صولة الامراء . واناة الحكماء . وتواضع العلماء . وفهم الفقهاء . ان أُحسن اليه شكر وان ابتُلي بالاساءة صبر . لا يبيع نصيب يومه بجرمان غده . يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه" انتهى وقد جمع بعض الشعراء هذه الاوصاف فاوجزها ووصف بعض وزراء الدولة العباسيّة بها فقال

بديهتهُ وفكرتهُ سواءٌ اذا اشتبهتْ على الناس الامورُ
واحزمُ ما يكون الدهر يومًا اذا اعيا المشاور والمشيرُ
وصدر فيه للهمم اتساعٌ اذا ضاقت عن الهم الصدورُ

وقد عدّد الامام الماوردي اوصاف الوزير في كتابه الموسوم بالاحكام السلطانية فقال الاول الامانة حتى لا يخون في ما اؤتمن عليه ولا يغش فيما قد استنصح فيه . والثاني صدق اللهجة حتى يوثق بخبره فيما يؤدّيه لمولاهُ ويعوّل على قوله في ما ينهاهُ عنه . والثالث عدم الطمع حتى لا يرتشي فيتمايل ولا يخدع فيتساهل . والرابع ان يسلم في ما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء فان العداوة تصدُّ عن التناصف وتمنع عن التعاطف . والخامس ان يكون ذكورًا في ما يؤدّيه الى مولاهُ وعنه لانهُ شاهد له وعليه . والسادس ان يكون ذكيًّا فطنًا حتى لا تدلّس عليه الامور فتشتبه ولا تموّه عليه فتلتبس فلا يصح مع اشتباهها عزم ولا يصح مع التباسها حزم وقد افصح بهذا الوصف وزير المأمون محمد بن زياد حيث قال

اصابة معنى المرء روح كلامهِ فان اخطأ المعنى فذاك موات
اذا غاب قلب المرء عن حفظ لفظهِ فيقظته للعالمين سباتُ

والسابع ان لا يكون من اهل الاهواء فيخرجهُ الهوى من الحق الى الباطل ويتدلس عليه الحق من المبطل وما احسن ما قيل

أنا اذا قلّت دواعي الهوى وانصتَ السامع للقائلِ
واصطرعَ القوم بالباطم نقضي بحكم عادلٍ فاضلِ

لا تجعل الباطل حقًّا ولا تلفظ دون الحق بالباطل .
نخاف ان تسنّه احلامنا فيجعل الدهر مع الحامل .

الثامن ان يكون محنكًا مجربًا لان التحنكة والتجربة تؤديان الى صحة الرأي وصواب التدبير وفي التجارب خبرة بعواقب الامور

هذا والمنتطف وقرّاؤه الذين يُعدُّون بالالوف وكلُّ من يحب هذا الوطن ويتمنّى له النجاح يشهدون بلسان واحد ان الشرائط اللازمة الوزارة قد اجتمعت في شخص رجل مصر السياسي الشهير والوطني الصادق الوطنيّة صاحب الدولة والاجلال رياض باشا فانهُ ابن مولاهُ الصادقُ النصيحة الصادق اللهجة العفيف النفس الشديد الحزم . الذي اجمعت قلوب الناس على مدحهِ ومهابتهِ . الخبير بضروب السياسة واحوال الممالك وما يرفع شأنها وما يحط قدرها . الجامع في صدرهِ تاريخ بلادهِ بل تاريخ كل رجل من رجالها . المتوقد ذهنهُ فطنةً وذكاءً حتى لا تخفى عليهِ خافية من احوال مجالسهِ . الذي صار الحزم صفة مميّزة له عند مشاهير كتّاب الافرنج لما علموا من انهُ لا يميل مع الاهواء ولا يحول عن مبادئهِ الحقّة . الذي تقلّب في مناصب البلاد وحنكتهُ التجارب فزادتهُ حكمةً على حكمةٍ ودعمةً على دعمةٍ

ولما ذاع الخبر بان الحضرة الخديوية الفخيمة قد انالت دولتلو نوبار باشا واستدعت دولتلو رياض باشا لتأليف وزارة جديدة جعل الناس يهنّئ بعضهم بعضًا بدنوّ اوقات الخير والصناء لا لان الوزارة القديمة كانت عابثة بمصالح البلاد بل لان آمال الناس وطيدة بان دولة الوزير الجديد أعلم بداء البلاد ودوائها فيساعد اميرها على علاجها واعادة ايام النعيم اليها

والمنتطف لا يقف موقف رجال السياسة ولا ينظر الى احوال البلاد من وجهتهم لان لهُ موقفًا بين اهل المعارف ووجهتهُ النظر في احوال البلاد الادبية والعلمية والصناعية والزراعية . ومن هذا الموقف يرى رجل مصر مترحبًا بهِ[٢] حائًّا الجميع على الاقبال عليهِ شاهدًا على رؤوس الملا ان خير البلاد في الحال والاستقبال متوقف على انتشار العلوم والآداب فيها وتوطيد اركان الزراعة والصناعة على المبادىء العلمية . ومن هذا الموقف يرى الحمل الثقيل الذي ألقي على عاتق وزير مصر واخوانهِ الوزراء العظام الذين اختارهم لمعاضدتهِ — يرى ان ثروة البلاد آخذة في النقصان لان وارداتها مع ما تدفعهُ ربا ديونها تزيد على قيمة صادراتها — يرى ان

(٢) اشارة الى الرسالة التي كتب بها البنا يوم نقلنا المنتطف الى مصر وقد ادرجناها في صدر الجزء السادس من المجلد التاسع من المنتطف

الزراعة وفي مصدر ثروة البلاد تقبل الانتاع اضعاف ما في معصمة والاتقان اضعاف ما في منشة — يرى الصناعة وهي مصدر آخر الثروة مبنية من البلاد كأنها ارتكبت احدى الكبائر — يرى العلم وهو اساس النجاح ضعيفاً ضئيلاً عائشاً بالرسم والتقليد — يرى حانات المسكرات غاصة بالذين باعوا وقتهم وعقلهم ودفعوا الثمن من جيوبهم — يرى مثاثر المقامرة تسلب اموال احرار الوطن وتميلها على نفر من رعاع الناس — يرى كل ذلك ويسأل الحق سبحانه ان يحقق آمال امير البلاد في وزيره ورفاقه الوزراء ليقوموا معه بعبء هذا الحمل الثقيل ويداووا ادواء البلاد ويردوا اليها ايام الخير والاسعاد

المكان او الفضاء

رغب الينا بعض القرّاء الكرام في معرفة اقوال فلاسفة هذه الايام في الفضاء او المكان هل هو محدود ومتناهٍ وهل له وجود حقيقي الى غير ذلك من الامور التي تتضح من مطالعة هذه المقالة المنشأة اجابةً لرغبتهم فنقول

ان مَن ينظر الى كواكب السماء لا يسعه الاّ الحكم قطعاً بانها موجودة في مكان هو فضاء القبة الزرقاء وكلّما امعن في استقصاء هذا الفضاء وجد تصوّرهُ قاصرًا عن بلوغ اطرافه عاجزًا عن الاحاطة به فيحكم بانه غير متناهٍ ولا محدود لانه لا يتصوّر له حدًّا ولا نهاية . وهذا الحكم يقنع المجادل ولكن ترى هل هو منطبق على الواقع حقيقة اي هل عدم استطاعتنا ادراك حدّ ونهاية المكان يوجب ان يكون المكان بالذات غير متناهٍ ولا محدود

ولا يضاح هذه المسألة نبحث عما قالهُ فلاسفة هذه الايام في ماهية المكان وكيفية علمنا بوجوده فنقول : ان للفلاسفة في ذلك اقوالاً اشهرها قولان احدهما ان علمنا بوجود المكان بديهي لا يحتاج الى نظر وكسب والآخر ان علمنا به يكون بعد النظر والاختبار كعلمنا مثلاً بالصوت واللون والحرارة والثقل الى غير ذلك . فاصحاب القول الاول يذهبون الى انهُ متى رأى الانسان المرئيات ولمس الملموسات حكم فوراً بوجودها في مكان . وصورة المكان هذه لم يحصل عليها بالرؤية او باللمس بل هي موجودة في نفسهِ بالفطرة ولكنهُ لم يعلم بها الاّ بعد رؤيتهِ المرئيّ او لمسهِ الملموس . وبعبارة أخرى ان صورة المكان تكون مطبوعةً على النفس من حين فطرتها قبلما تنطبع عليها صور المحسوسات الخارجية المدركة بالحواس ولكن العقل لا يعلم بوجودها فيهِ وانطباعها عليهِ الاّ بعد ما تؤثر فيهِ المحسوسات من مرئية وملموسة . فتأثير المحسوسات في النفس شرطٌ لتصورنا